اللغـــة . . جسر العبور النفسي

في مختار الصحاح اللغة أصلها لُغَىٌ أو لُغَوٌ وجمعها لُغًى ولُغَات . والنسبة اليها لُغَـوىٌ ولا تقـل لَغَـوىٌ بفتـح الـلام لأن اللغـويعني القـول البـاطـل . قال تعالى ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ .

وفي تفسير علماء سيكولوجية اللغة ، فان للغة مفهوما عاما وخاصا . فاللغة في مفهـومهـا العـام تمثـل جسور التواصل وقنوات التخاطب المتاحة بين الناس أو بين الكـائنـات الحية الأخرى . وفي مفهومها الخاص ،تتشكل اللغة في الصور اللفظية المتـداولـة كما تتكون من الكلمات الموحية والجمل المعبرة ، وبذلك تمثل أبرز سمات السلوك الانساني الراقي المحكوم بالحركة الارادية المنظمة للجهاز العصبي المركزي في المـخ ، مركـز التخيـل والتـذكـر والتفكير وكل ما يميز الانسان عن الحيوان ، مما جعل بعض علماء الاجتماع السلوكي يطلقون المقولة الشهيرة «ان الانسان حيوان اجتماعي ناطق» .

ان اللغـــة سلوك انسـاني ينمـو ويكتسب بالتقليـد والتعليم بنتيجـة تفـاعـل الاستعـداد الـوراثي والظـروف البيئيـة المحيطـة المثيرة للحواس والمنشطة لأجهزة الكلام بالتدريب والممارسة ، حتى تصبح اللغة حصيلة أنشطة الحواس والقدرات الادراكية والذكائية والاستعداد النفسي للكلام والكتابة وفهم الرموز وربط اللفظ بالمعنى . . معنى نبرات الصوت وتعبيرات الوجه واشارات اليد وحركات الجسم ، فلذلك يكون للغة مظهران : في الاشارات أو الصور اللفظية . . والاشارات أما أن تكـون عاديـة كاشـارات المـرور وزي الشرطي والطبيب وأعلام الدول وشعارات الهيئات الدولية . أو اشارات خاصة بين الافراد والقبائل والشعوب كحركة اليدين في السـلام المميـزة لمختلف الشعـوب ، أو حركـة الاكتـاف ورفع حواجب العيون الدالة للتعبير عن الرفض والقبول . . والصورة اللفظية تتمثل في دلالة الكلمات أو الصـور الـذهنيـة في الـرمـز الداخلي ، والتي تعكس أرقى وسيلة استخدام الصورة

العقلية في التفكير الرمزي لدى الفرد السويّ العاقل حيث قال تعالى : **اقرأ باسم ربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم**﴾ فاللغة احدى ركائز العلم الأساسية في تحصيل المعرفة، ولا خير في علم لا ينتفع به، ولا خير فيمن تعلم علما ولم يعلمه، لأن العلم زكاة، وفي الطاعة والامتثال لهذا الأمر تتأكد خصوصية اللغة كأحد وجوه تمييز الانسان على الحيوان من منظور رباني.

تشتق اللغة نوعيتها من الحواس التي تستعمل فيها. . كالسمع في اللغة المنطوقة، والبصر في اللغة المكتوبة أو المرئية، الى جانب كفاءة بقية الحواس الأخرى.

وضرورة اللغة في العلم والتعلم واكتساب الخبرة تتجسد في وظيفتها الأساسية في عدة وسائل : كوسيلة تعبير عن حاجاتنا ورغباتنا وأفكارنا للآخرين، ووسيلة اتصال ننقل بها معنى للناس لنتعايش منهم، ووسيلة تحكم في سلوكهم بالسيطرة عليه عن طريق التأثير عليهم، ووسيلة ترويح نفسي أو تفريغ عقلي لشحنات انفعالية في الغناء والايقاع أو الحديث وحسن الاستماع. . كل هذه الاشكال الوظيفية للغة تؤكد أهميتها كجسور عبور معلقة تختصر الطريق بين نقطتين حين يعني العبور كسر الحاجز النفسي بين طرفين.

وفي مجال الترويح النفسي أو التفريغ العقلي تبدو أهمية اللغة في الرغبة القهرية لكسر حاجز الصمت قبل مرحلة الانفجار. ونلاحظ هذه الضرورة الحياتية أشبه بحاجة الانسان للماء والهواء عندما نتابع تعبير الانسان عن هذه الحاجة في مراحله المختلفة، من الميلاد الى الممات. فاذا شاهدنا الطفل وهو يحاول أن يتكلم ويعبر عن نفسه، يتململ وترتعش كل مفاصله، كالغريق الذي يتنفس داخل الماء. . واذا شاهدنا المتلعثم (التأتأة) وأنفاسه تتقطع وصوته يتهدج وعضلات وجهه تتقلص بحثا عن مخارج الكلمات، أو المريض المشلول في مركز الكلام في المخ يسمع ما يقال ويعي ما يدور ويعبر بدموعه الحزينة عن عجزه عن التعبير بكلماته الرصينة. أو المحتضر الذي يسأل من أعماق رئتيه كلمات الشهادة

عند حشرجة الموت . . ان كل هذه الصور القلمية ترسم شكل اللغة . . جسر العبور الى الطرف الآخر. وبدون اللغة لا نستطيع قطع المسافات الخرافية والابعاد الشاسعة التي تفصل بين الافراد والجماعات والدول. بل على النقيض، تتسع وتتمدد صحاري ومحيطات، وهذه بعض الحواجز النفسية القائمة بين الناس منذ القدم، والتي تتجدد أشكالها وتتعدد أبعادها. وكلما اختزل العلم الحديث حجمها الجغرافي، كلما عجز عن عبور حواجزها النفسية. وتظل الرغبة في الخروج من هذه العزلة مفتاح أزمة اللغة المتمثلة في هذه الحاجة الملحة للحوار واللقاءات واقامة المؤتمرات. وكل هذه الاشكال المتنوعة والانماط السلوكية المختلفة ما هي إلاَّ أحد وجوه الاستغلال الأمثل لعنصر اللغة في خلق التلاحم والتقارب، ولا يتم كل هذا إلاَّ من خلال دبلوماسية فن صناعة جسور العبور النفسي . . صناعة اللغة.

واللغة هي مفتاح الشخصية. فقد قيل أن رجلا دخل على اعرابي في حضرة القوم، وجلس صامتا، فقال له الاعرابي: تكلم أيها الرجل حتى نعرفك. . يقصد أفصح عن هويتك من خلال كلامك الينا، مما يعبر عن أهمية «الكلام» في تحديد ملامح الشخصية، لأن الكلام لا يعكس فقط اهتمامات الانسان (وكل اناء بما فيه ينضح) بل طريقة تفكيره، وخريطة عقله الداخلي، مما جعل البعض يبالغون في استقبال الانسان بمظهره، ويفرطون في وداعه بمخبره بعد خلق جسر العبور. وعندما يقال «اذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب» فهذا لا يلغي دور اللغة، لأن اللغة حركة وسكون. . فالسكوت قد يكون أكثر افصاحا من الكلام، ولذلك قيل «ان في الصمت كلاما» ويقال: «لكل مقام مقال».

واللغة احدى وسائل التمييز بين الشعوب والأمم. . فلذلك أصبحت اللغة من مظاهر التعبير عن صدق الحس الوطني في الانسياق لها، والاعتزاز بها، والاعتماد عليها في نقل المعرفة الى الاجيال عن طريق نقل الاخبار من الرواة، أو التراجم المنقولة من الشعوب المتقدمة، حيث يظهر فضل اللغة في كتابة التاريخ وتأصيل المعرفة واختصار المسافة بين القديم والحديث، حين يكون الانتقال من الماضي الى الحاضر هو أفراغ الاشكال الصورية في الوعاء الجديد.

وتظهر أصالة الشعوب في مدى احترامها للغتها، حتى ان بعض الشعوب تكتسب سماتها لدى شعوب أخرى من لغتها. . فيقال أن هذا الشعب هادىء قليل الكلام وذاك اندفاعي كثير الكلام والآخر عصابي يعبر بالاشارات الكثيرة والحركات الجسمانية، والآخر سليط اللسان جارح الالفاظ. . وبعض الشعوب تجيد الاصغاء، وأخرى تحترف الحديث. . وظاهرة الاصغاء تؤكد اننا نفكر بسرعة أكثر مما نتحدث. ولذلك في لحظات الاصغاء، يصيبنا الملل من فرط سباقنا للمتكلم في محاولة اللحاق بتحليل الشعور الشخصي لدى المتكلم تجاه الموضوع وانشغاله به، حيث تختفي الدوافع وراء الكلمات.

اننا من خلال الاستماع نسرع في تكوين فكرة عن شخصية المتكلم. . صورة تخلق حالة نفسية خاصة تحدد شكل الاستجابة للمستمع ورد الفعل. ويبدو هذا أكثر وضوحا في الحملات الانتخابية والمناظرات السياسية والمناسبات الخطابية، حيث لا ينقل الكلام نفس المعنى لكل الناس، ولذلك تتباين ردود الفعل وتختلف الاستجابات، لأن الناس يختلفون في درجة الاصغاء وحب الحديث، وكلما طغى جانب على آخر، كلما حدث تشوش داخلي برز في نماذج «كلام» خارجي لا يعبر عن الواقع، ويعكس طول المسافة في جسر العبور النفسي الى الطرف الآخر.

اننا نعيش عصر الاصغاء. . في التليفون والراديو والتليفزيون وكل المثيرات السمعية والبصرية التي تفرض علينا الاصغاء، وتحرمنا متعة الحديث. وقد أصبح من سمات هذا العصر أن يجلس الانسان بمفرده في غرفة مغلقة، ساعات، يحاور الاجهزة الالكترونية، ينتقل عبر موجات الاثير ويتجول بين القارات، ولا يتحدث الا من خلال «مونولوج» داخلي مع نفسه. وهذه أحد أنواع العزلة النفسية التي يفرضها غياب اللغة (الكلام). . جسر العبور النفسي الى الطرف الآخر.

يقولون أن المرأة أسعد المخلوقات في عالم اليوم لأنها تملك قدرة التفوق اللغوي على الرجل، فهي منذ طفولتها تبدأ الكلام مبكرا، وتزداد حصيلتها اللغوية، وتتمتع بالنطق الصحيح وقوة البيان. وأن ما يطلق عليه «ثرثرة المرأة» هو القدرة المميزة على التعبير عن نفسها بأسلوبها الخاص، وهو نتيجة الفضول

الفطـري للتسـاؤ ل والسـرعـة الغـريـزيـة للاجابة فكثرة غالبة من النساء لا تجيد الاصغاء لأنها يستوعبها الموقف المشكل بصورة عاطفية شديدة تحد من قدرتها على السيطرة نتيجة قوة الانفعال. ولذلك قال أحد الحكماء «ان عقل المرأة في لسانها، وعقل الرجل في أذنيه».

ويبدو أن الاطفال الذين يرجمون العدو بالحجارة، يفرضون عليه كسر الحاجز النفسي بعـد أن فشلت كل وسـائـل اللغة في التعبير والاتصال والتحكم والتفريغ العقـلي. وفي غيـاب البديل المناسب، قرروا قطع جسر العبور باستحداث وسيلة جديـدة.. لغـة خاصة للحوار والتخاطب.. لغة الحجارة.. وهذه ظاهرة نفسية يحتاج تفسيرها الى الحديث عن دور اللغة في الطب النفسي..